رؤية إسلامية لعلم الهندسة

الوراثية والاستنساخ البشري

عارف علي عارف*

مقدمة

علم الهندسة الوراثية، أو علم الجينات (Genetic Engineering) : مصطلح يطلق على التقنية التي تغير الموروثات (الجينات) ويبحث في الأجنة وإجراء التجارب عليها، وفي عمليات أطفال الأنابيب لأجل التحكم في سلسلة الشعيرات الملتوية الموجودة دخل الحامض النووي المسماة DNA التي تحمل ملايين الصفات الوراثية للإنسان.

والجينات مكونات كيميائية تسيطر على بناء الجسم، وتتحكم في كل شيء ابتداءً من لون الشعر وشكل الجسم وجماله، وانتهاءً بملامحه الشخصية، وربما أيضاً صفاته النفسية والسلوكية، وتحوي سجلاً لماضي الجسم، كما تحوي شفرة وخريطة لمستقبله. وقد أكد العلماء أن أي خلل في شكل أي جين، أو حجمه، أو مكانه يمكن أن يسبب عاهة خلقية، أو مرضاً ما، والجين عبارة عن خيوط دقيقة من مادة الحياةDNA، ومادة الحياة هذه هي التي تحمل الصفات الوراثية منذ بدء الخليقة إلى اليوم، ولا يتعدى وزنها الجرام الواحد: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:5).

ويعتقد العلماء أن القدرة على دراسة الجينات واستغلالها يمكن أن تؤدي إلى تغيير كل شيء في حياة الإنسان، فالجينات "كومبيوتر" بيولوجي في جسم الإنسان يعرف كل أسراره السابقة، وبناءً عليه يمكن استنباط الكثير عن مستقبله الصحّي.[1] لقد أثار هذا العلم ضجة كبرى، والناس فيه ما بين متفائل به لخدمة

---

* دكتوراه الدراسات الإسلامية في الفقه من كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد 1992، أستاذ مساعد بقسم الفقه وأصوله، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

1 انظر جريدة المسلمون، العدد 283 ص: 5؛ ود. زولت هار سنياي ورتشارد هستون: التنبؤ الوراثي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 130 ص: 24، والموسوعة العربية العالمية، السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة السعودية 1996، ج26، ص172.

البشرية، ومترقب وخائف من مارد جديد ينطلق من أنابيب الاختبار لتدمير البشرية، كما انطلق من قبل مارد الطاقة الذرية.

ويتنبأ العلماء بأن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الثورة البيولوجية وهندسة الأحياء، وأن علم الهندسة الوراثية هو الذي سيتوج ملكاً للعلوم البيولوجية.

ولكن في الوقت نفسه أصبح هذا التقدم في علم الأحياء وهندسة الجينات يشكل كابوساً مخيفاً، لما لهذه الأبحاث من انعكاسات سلبية محتملة على الإنسان والبيئة والمجتمع، لأن أكثر ما يخشاه العلماء هو أن يؤدي هذا التقدم التقني في أسلوب الهندسة الوراثية وتطبيقاتها في نطاق الطب الوراثي والبولوجيا البشرية إلى بؤس الإنسان وتشويهه وضياعه في كثير من الأحيان، وقد تدفع الإنسانية ثمناً باهظاً بسبب تطبيقات هذا العلم وأحلامه إذا ما تحققت مستقبلاً.

وفي غياب الإطار الإيماني يمكن لهذا التقدم التقني أن يقود الإنسان إلى متاهة لا يدري منتهاها، لتطاوله على قوانين الطبيعة البشرية، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأتقن كل شيء صنعه، لكن غرور الإنسان بعلمه، وطغيانه بعقله قد يؤديان به إلى إنكار عبوديته لله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ (الإنسان:1). وقد يدّعي الإنسان أنّه أصبح شبيهاً بالإله، وأن له الخلق والأمر لأنه قادر على التلاعب بالحياة،[2] وهذا الغرور والطغيان بعلمه وقدرته أخشى أن يأتي يوم يصدق عليها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: 24).

هذا الإنسان الذي كرّمه الله سبحانه، ينبغي أن نحميه من عبث الإنسان نفسه، فنحافظ على بنيته العقلية والنفسية والعضوية، لنحافظ على النوع الإنساني على كوكب الأرض، وعلى تراثه الوراثي الجيني.

---

[2] يقول الكاتب لايغر .Lygre. D.G في كتابه، (Life manipulaton, New York: Walker and company 1979): "لقد كنا خلال تاريخنا البشري، نأكل من ثمار المعرفة، ونحن الآن في طريقنا إلى أن نصبح أشباه آلهة، إذ أننا بالمعرفة أصبحنا نملك قوة أكبر للسيطرة على حياتنا، وحياة الآخرين، فنحن بالفعل تجاوزنا السؤال عما إذا كان من الممكن أن نلعب دور الآلهة". نقلاً عن ناهدة البقصمي: الهندسة الوراثية والأخلاق، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ص201، ود. محمد سعيد الحفار: البيولوجيا ومصير الإنسان، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر 1984، الصفحات: 91، 111، ص197، 203.

إن هذا العلم نبت في رحم حضارة الغرب الذي رفض الإيمان وعزله عن مجرى الحياة الواقعية، ونشأ في بيئة فيها من التعاسة والتمزق والشقاء النفسي والروحي والعاطفي والاجتماعي ما هو معروفة آثاره ومظاهره، على الرغم من ارتفاع منحنيات الإنجاز المادي، هذا العلم غير المصحوب باسم الله كما أراده له أهله، يأبى إلاّ أن يكون لله، لأن فيه الدلائل على عظمة واهبه، وجلال قدرته، وحسن صنعته، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53).

إن مصدر العطاء في الكون واحد وهو الله جلَّ وعلا، خالق الإنسان ومنزل القرآن، خلق الإنسان بقدرته من خلايا، وأودع الجينات فيها. وهو سبحانه الذي خلق العقل لكي يكتشف هذه الأسرار والنواميس، وكل ما توصل إليه العلماء بتجاربهم وما سيتوصلون إليه مستقبلاً ليس إلاّ كشفاً عن سنن كونية خلق الله تعالى عليها الكائنات.

إن أسلمة هذا العمل وانضواءه تحت لواء التوحيد، وصبغه بالصبغة الإسلامية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة:138)، إنما هو صمام أمان له من الانحراف والسقوط، وتطويق لتلك الغايات التي يخطط لها أهل الشر، وهو تطمين لمشاعر القلق والخوف والفزع التي تعتري الإنسان في هذا العصر، لأن جنوح هذا العلم وخروجه عن مطالب الإيمان العليا يشكل كارثة مروعة لبني الإنسان لعدم انضباطها بالقيم والموازين الإلهية التي تقضي بعدم الاغترار بالقوة والعلم، بل يجعلهما دائماً مع الحكمة والتعقل في طرفي ميزان.[3]

إن التخطيط والتحكم في مسيرة هذا العلم واستخدامه بحكمة يستوجب تقديم الحماية الإيمانية له عن طريق ذلك العناق الكبير بين القراءتين: العقل والوحي، بين العلم والدين، حتى نطمئن إلى أننا نيسر في الاتجاه الصحيح. فتوزن تلك القضايا جميعها بميزان الشريعة، إذ فيه الطمأنينة والأمان للإنسان ولكرامته وآدميته، وهذا الميزان هو وحده حبل النجاة لنا وللبشرية جمعاء، وهو القادر على إنقاذ سفينة الحضارة قبل أن تغرق ونغرق معها. إننا نريده علماً مؤمناً يسعى لأن يمنح أُكله طيباً للناس كافة، سخي العطاء، إنساني المنحى. إن هذه الاكتشافات الخطيرة والمنجزات الهائلة إنما هي بفضل الله واهب العلم، واهب العقل، واهب

---

[3] الحفار، مرجع سابق، ص244.

القدرة لهذا الإنسان، إنه قطرات من بحر علمه الذي لا تنفذ كلماته،[4] فكثير من نتائج هذا العلم إنما هي في صالح الإنسان لإعادة المريض والمعوق والمشوه إلى أصل الخلقة القويمة التي خلق الله الإنسان عليها، إلى ذلك الجمال المتناسق المتآلف المتناغم مع جمال الوجود ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: 88).

إن القضايا المتعلقة بالهندسة الوراثية هي مسائل اجتهادية لم تتناولها أدلة خاصة بها، لأن أكثرها مسائل مستجدة، وهي وليدة التقدم العلمي، والاكتشافات المعاصرة، والشأن في نتائج البحث في مثل هذه القضايا أنها تظل مح نظر واجتهاد. ولا بد لنا —من أجل أسلمة هذا العلم– من استجلاء أحكام الشريعة الإسلامية في الوقائع المستحدثة التي تحتاج إلى نظر فقهي عميق ومتجدد. وهذا يعني أننا لن نتوقع وجود نصوص شرعية خاصة تتضمن تلك الأحكام بصورة مباشرة، وإنما سنحاول تلمسها من النصوص العامة، أو استنباطها من القواعد الكلية.

ولا بد أن نعرف في البداية أن للهندسة الوراثية جانبين، مثلها مثل كل العلوم الأخرى: جانباً إيجابياً وجانباً سلبياً، وسنستعرض إيجابيات هذا العلم، والمصالح التي يحققها، وكذلك سلبياته والمفاسد التي تترتب عليه، ونبين حكم الشرع في كل منهما.

لا شك أن علم الجينات قد أدى على المستوى العلمي إلى مزايا عظمى لبني الإنسان، وفي كل يوم تظهر نتائج جديدة ومبهرة في مجال هذا العلم لصالحه، وهذه المصالح تدخل ضمن قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ (الجاثية: 13)، ولقد وجد الإنسان أنه يستطيع تطبيق هذا العلم والانتفاع منه في مجالات متعددة تدر عليه الخير العميم والنفع المقيم. منها:

أولاً – في مجال الزراعة والغذاء

إن علم الهندسة الوراثية قد أنجز الكثير لتوسيع موارد الغذاء وتنويعها لمقاومة المجاعات، ومن أجل تلبية احتياجات النمو السكاني المتصاعد في العالم، والذي سوف يرتفع إلى عشرة بليون نسمة خلال الثلاثين سنة

[4] د. عمار الدين خليل: مدخل إلى إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991م، ص: 24.

القادمة[5] وقد أمكن إنتاج أنواع جديدة من الغذاء فيها بروتين عال، مع زيادة إنتاجية المحاصيل، وإنتاج غلة بصفات جيدة، أو خضراوات تحمل صفات ممتازة، وذات قيمة اقتصادية عالية، وكذلك إطالة مدة صلاحية بعض الفواكه والخضراوات، وتهجين الثمار، وقد قطع هذا العلم شوطاً في حماية النباتات من الآفات، وزيادة مقاومتها بطرائق بيولوجية أفضل من استخدام المبيدات الكيماوية الضارة بصحة الإنسان وقطعوا أشواطاً بعيدة في حماية المحاصيل من الحشرات الضارة ومن الصقيع، وقد أمكن أيضاً حل مشكلة الحبوب باستنباط أصناف منها تزرع داخل المياه المالحة، وتم أيضاً تهجين نوع من القطن لا يتكسر ولا يحتاج إلى كيّ، وفي مجال التلوث أمكن اكتشاف مواد تقضي على التلوث البترولي في البحار، وهناك تجارب على الزراعة في التربة الملوثة بالنفط[6] وأمكن كذلك إنتاج نباتات تنمو في المناطق الجافة، أو تحت الثلوج، واستطاعوا أيضاً الحصول على كميات هائلة من هورمون نمو يوجد في الأبقار لزيادة الحليب، وإنتاج لحوم أبقار قليلة الدهن.

ثانياً – في مجال الطب والأدوية

لقد قطع هذا العلم شوطاً بعيداً في مجال العلاج والدواء، ففي دائرة الأمصال والتطعيمات تم بنجاح تصنيع الأنسولين الآدمي لعلاج مرض السكر بدلاً من الأنسولين البقري والخنزير، الذي كان يسبب الحساسية. ومن هذه المعالجات إنتاج هورمونات النمو البشري لعلاج الإنسان العزم (وهي تؤخذ من الغدة النخامية)، وكذلك علاج مرض سيولة الدم بإنتاج مركبات الدم المهمة (عامل التجلط رقم 8) وإنتاج مصل الدم الآدمي (البيومين)، وقد تم بواسطة هذا العلم تحضير أمصال لتطعيم الكبد الوراثي، ويتم حالياً إيجاد أمصال ضد البلهاريسيا.

وبفضل الهندسة الوراثية يؤمل أن يُنتَج لبنٌ للأطفال من البكتريا كلبن الأم، ويتوقع العلماء تشخيص أكثر من أربعة آلاف مرض تصيب الإنسان نتيجة خلل الجينات الوراثية وعلاجَها، والحد من تشوهات المواليد الخلقية، كتشوهات الأطراف، والعمى الولادي، وأمراض القلب والأوردة الدموية، وكما في مرض الكولسترول العائلي القاتل، أو هبل المنغولية، أو فقدان الذاكرة عند مرضى الزهايمر، وتعديل الاستعداد

---

5 مجلة التقدم العلمي، الكويت: سبتمبر 1995، العدد 11، ص7.

6 انظر المصدر السابق، ص26؛ وناهدة البقصيمي: مصدر سابق، ص16؛ والموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، صج26، ص174.

لإصابة ما، مثل احتشاء القلب. وربما يتم التخلص من جينات الإجرام والحقد والإحباط وداء باركنسون والجنون، وسيتم زراعة أعضاء جديدة حسب الطلب من كبد وقلب وبنكرياس، وقد يمكن القضاء على العوق بتغيير التعليمات التي تصدرها الجينات أثناء عملية النمو، وكذلك معالجة أمراض الشرايين التاجية وضمور العضلات، وبعض الأمراض النفسية كانفصام الشخصية (اليزوفرينيا)، وبعض حالات الكآبة.

والأمل معقود في المستقبل لمعرفة الجين المسؤول عن كل مرض وراثي، وإصلاحه عن طريق (العلاج بالجينات)؛ ذلك أن الجين عبارة عن جزيء من المعلومات التي بواسطتها تتم برمجة الأحماض الامينية في الخلية، وعلى ذلك لو تيسر للطبيب أن يدخل معلومات تصحيحية، أو علاجية إلى الخلية، فإنه يصبح ممكناً القضاء على المرض، أو تلافيه مسبقاً، فالعلاج عن طريق الجينات هو بمنزلة تطعيم ضد الأمراض أو العاهات، يتلقاه الجنين من قبل أن يولد أو يتشكل في رحم الأم.[7] ويحاول العلماء في كاليفورنيا التوصل إلى علاج للقضاء على الصلع والشيب في آن واحد باستخدام علاج جديد بالجينات الوراثية.[8]

ومن المتوقع نتيجة بحوث الهندسة الوراثية ذات الصلة بكيمياء الجسم وعلوم الأدوية أن تتضاعف قدرة علوم الصيدلة والطب على التوصل إلى الترشيد الأمثل في استخدام الأدوية طبقاً للمواصفات الوراثية لكل مريض.[9]

ومن المنافع التي يحققها هذا العلم مواجهة الفيروسات المهددة للجنس البشري مثل: الإيدز AIDS وغيرها. وهذا الوباء هو إحدى مصائب هذا العصر، وينتقل بالوسائل المحرمة شرعاً، ونسبة بسيطة منه ينتقل بسبب الخطأ، ووظيفة هذا العلم في مقاومة مثل هذه الأمراض إيجاد مناعة طبيعية في جسم الإنسان ضدها،

---

7 انظر د. أمل عبد الباقي، مقال بعنوان: "التطبيقات التشخيصية الطبية لعلم الوراثة"، جريدة طب وعلوم، بغداد، 1988/12/6م ص: 2: د. مأمون على إبراهيم، بحث بعنوان: "الاستفادة من الأجنة المجهضة أو الزائدة عن الحاجة في التجارب العلمية وزراعة الأعضاء"، ص4. ناهدة البقصمي، المصدر السابق، ص204، وانظر الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج16، ص333.

8 مجلة الشرق الأوسط العدد 225 في 23 يوليو 1996 ص32؛ ود. خالص جلبي، مقال بعنوان: "هل يستنسخ البشر؟"، مجلة العربي، الكويت: العدد 463 في يوليو 1997.

9 اكتشف ع لماء الهندسة الوراثية أن الدواء يتأثر بعوامل وراثية في جسم المريض، فقد تكون الوراثة سبباً لضعف التأثير العلاجي لدواء ما عند تناوله بالجرعات المعتادة عند بعض المرضى، وقد تكون سبباً لحدوث أثر سام من الدواء عند تناوله بالجرعات نفسها عند مرضى آخرين، وهذا النوع الجديد في علوم الدواء يسمى علم الدواء الوراثي انظر د. محمد رؤوف حامد، مقال بعنوان: "ولكل إنسان دواؤه"، مجلة العربي، الكويت، العدد 443، أكتوبر 1995.

أو وضع جين GENE معين في الجسم لمقاومة المرض بعد اكتشاف البروتين المقاوم لهذا المرض.[10] وفي مجال السرطان تم اكتشاف بعض الأدوية مثل الأنترفيرون، وهو دواء مصنع بطريقة الهندسة الوراثية لمقاومة بعض الخلايا السرطانية والأمراض المستعصية.

فهذه المنافع التي يحققها هذا العلم إنما تندرج في التصرفات المشروعة الداعية إلى العلاج والتداوي، إذ إن معالجة أسباب المرض والتشوه وتخليص الإنسان من الألم والضرر أمر مطلوب شرعاً، حيث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتداوي بقوله: "تداوَوْا عباد الله"،[11] وتندرج كذلك تحت قواعد إزالة الضرر ودرء المفسدة وتحصيل النفع والحرص عليه وعلى رفع مستوى الفرد والمجتمع.

من أضرار الهندسة الوراثية ومفاسدها، وبيان الحكم الشرعي فيها

على الرغم من المصالح الكثيرة التي حققتها الهندسة الوراثية، فإن هناك وجهاً آخر لهذا العلم وجوانب سلبية ضارة أقضت مضاجع العلماء، وجعلتهم يشعرون بالخوف والقلق من مستقبل هذا العلم، ليس فقط الخوف مما نعلمه إلى حد الآن من إنجازاته، بل الخوف كل الخوف مما نجهله، ومما يتوقعه علماء الهندسة الوراثية في المستقبل. وسأُبيّن بعض هذه المفاسد، والمشكلات المترتبة عليها، مع بيان الحكم الشرعي فيها.

1- الاستنساخ Cloning[12]

---

10 وقد وصلت تجارب الهندسة الوراثية إلى تطورات مهمة بالنسبة إلى فيروس الإيدز، وكيفية دخوله إلى الخلية، وثم اكتشاف الأنزيم الذي يساعد الفيروس نفسه. انظر: يوسف الشايجي، مرجع سابق ص24.

11 انظر سنن أبي داوود، ج4، ص3، سنن الترمذي، ج4، ص383، سنن ابن ماجة، ج2، ص1137، صحيح البخاري بهامش فتح الباري، ج10، ص113، صحيح مسلم بهامش شرح النووي، ج1، ص191.

12 لا يوجد في المعاجم الشائعة مقابل لكلمة Clone وبعضهم ترجموها إلى "النسلية" إلا أن تعريف كلمة Clone في معجم Merriam Webster الإلكتروني هو:

1- الناتج من التكاثر اللاجنسي خضرياً "مثل النباتات"، 2- كائن ناتج من نمو خلية جسمية من والديه، ويتشابه وراثياً مع والده، 3- ما يبدو كنسخة طبق الأصل.

وقد ورد "النسخ" في العربية، يقول الأزهري في التهذيب، النسخ: اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف، والاستنساخ كتب كتاب عن كتاب، ويقول ابن الأعرابي: النسخ: هو نقل الشيء من مكان إلى مكان هو هو، انظر د. مصطفى محمود حلمي، مقال بعنوان: "آخر قنابل هندسة التناسل"، مجملة العربي، العدد 463 يونيو ص1997.

في العالم اليوم ضجة حول قضية الاستنساخ ما بين مستنكر له، وخائف من نتائجه، وإحساس بأنه بات أشدَّ خطراً من القنبلة الذرية، وما بين متفائل يرى أنه لو أحسن التصرف فيه لصالح البشرية لحقق مصالح كثيرة، وبين هذا وذاك من واتته الفرصة لتوظيف هذه المسألة الخطيرة لينال من أسس الإيمان؛ لأن الأمر يتعلق بقضية من قضايا الوجود الإنساني والخلق الإلهي، وعلاقة الإنسان بخالقه، ولم ينقطع الضجيج المفتعل واللجوء إليه، وهو دأب من يُريد دائماً هدم العقيدة في النفوس والتشكيك في أصول الدين ومسلماته، وذلك منذ حكايات داورين وقروده إلى اليوم، وقد عادت الضجة مرة أخرى ظنّاً منهم أنهم اقتربوا من عملية الخلق.

والحقيقة أن علاء الهندسة الوراثية في عملية الاستنساخ ما تحركوا إلاّ داخل نطاق حدود فرضها الخالق سبحانه، فهي حدود ليس فهيا خطوط حمراء محظورة في اختراق عملية الخلق والإيجاد كما قررها خالق الإنسان والحياة والكون: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: 73).

فالإنسان لا يملك أن يخلق خلية أو جيناً أو حياة: ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾ (الفرقان: 3)، فالعلماء مهما بلغوا من المعارف والعلوم فلن يستطيعوا أن يوجدوا شيئاً من لا شيء على الإطلاق. إن عملية الخلق من اختصاص الخالق جلّ وعلا، وإلاّ فالبشر –ولو اجتمعوا– لا يمكنهم أن يخلقوا ذرة من مادة، أو موجة من طاقة، أو ومضة من حياة. أما ما جرى في مسألة الاستنساخ فهو شيء آخر، إذ هو تخليق، وليس خلقاً، وهناك فرق بين الخلق والتخليق، فالخلق لله عز وجل: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:54)، والتخليق أو التكوين يستطيع الإنسان بواسطة ما خلق الله، فالإنسان لم يخلق الأنسجة ولم يخلق المادة الحية، ولا الخلية، ولم يخلق جيناً أو بويضة، فالله هو الخالق البارئ، لكن الإنسان استطاع بما خلق الله أن يتوصل إلى هذه المنجزات والنتائج في هذه العملية.

ويبدو لي: أن المعنى الذي ذكره الأزهري وابن الأعرابي له علاقة بالمعنى الاصطلاحي الجديد، بجامع التشابه بينهما، هناك التشابه في الكتابة بين الأصل والصورة، وهنا ا لتشابه في الوراثة بين الأصل والصورة المستنسخة.

وقد شاع مصطلح الاستنساخ في المجلات والدوريات العلمية العربية، وقد أصبحت دلالته واضحة، وهي أكثر وضوحاً من "النسلية" و(الاستنسال)، لذا اخترت هذا المصطلح في بحثي.

فالاستنساخ يكون من خلية جيدية خلقها الله، ويحتاج إلى بويضة خلقها الله، ويوضع في رحم خَلَقَهُ الله. ولولا أن الله سبحانه وضع قابلية التخليق في الخلية الجسدية لما استطاع الإنسان فعل ذلك. وما توصل إليه العلماء اليوم لا يخرج عما يشاء الله لهم أن يعلموه:[13] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة:255).

ولأجل ذلك كله فإن الاستنساخ لا ينبغي أن يزعزع ركائز الإيمان والعقيدة لدى المؤمنين، ولا يشكك في قدرة الخالق، ولا يعني ذلك أن الإنسان يمكن أن ينافس الله تعالى .

وقبل أن ذكر معنى الاستنساخ يحسن بنا إعطاء فكرة موجزة عن أصل هذه المسألة، فقد راودت العلماء فكرة تحسين النسل البشري[14] بطريق الاستنساخ الحيوي Cloning.

وقد كتب عنها بعض الكتاب بوصفها نوعاً من الخيال العلمي المستقبلي، فكتب عنها ألدوس هيكسلي منذ 61 عاماً، وفكرة أخرى ظهرت في أحد كتب الخيال العلمي عن محاولة أحد العلماء التسلط على أهل الأرض باستخدام شعر هتلر، واستخلاص مادة DNA منها، وتصنيع نسخة ضخمة من هتلر يكون هو زعيمهم للسيطرة على الأرض.

هذا جانب من الموضوع، أما الجانب الآخر فيتعلق باستنساخ الجنين، فقد حدثت مفاجأة أثناء انعقاد مؤتمر جمعية الخصوبة الأمريكية بمونتريال ليعلن الدكتور جيري هولم، وزميله روبرت ستيلمان عن نجاح تجاربهم لنسخ الأجنة من الإنسان.[15] والنتائج الأولية لهذه التجربة[16] مثيرة، وخطيرة في آن واحد، وتتلخص في أنه

---

13 انظر رأي الدكتور يوسف القرضاوي في هذه القضية، مجلة المجتمع، العدد 1344 في 1997/4/1، ص30.

14 فكرة تحسني النسل البشري فكرة قديمة راودت أفلاطون في الجمهورية، وذلك لأجل إيجاد نخبة جيدة من الأطفال الذين يشكلون جيل المستقبل في الجمهورية الفاضلة. وقد ذهب إلى أن الاتصال الجنسي يجب أن يتم في مناسبات معينة تحددها الدولة لإنجاب الصفوة المختارة، وكان يدعو للتخلص من الأطفال المشوهين، والذين في أجسامهم عيب حتى لا يبقى في الدولة سوى الأشخاص الأصحاء. انظر جمهورية أفلاطون، ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1974، ص460-461.

15 د. محمد علي بديوي: مقال بعنوان: "استنساخ الأجنة ثورة علمية.. أم كارثة إنسانية؟"، مجلة العربي، العدد 454 سبتمبر 1996 ص: 168.

16 تعتمد تجربة جيري وروبرت على أن أصل أي كائن حي هو خلية واحدة تنقسم إلى اثنتين، ثم أربع وهكذا، والذي حدث أن العالمين استطاعا فصل الخليتين الأوليين كيميائياً –وهذا يتم بصورة طبيعية أثناء تكون التوائم في رحم الأم- ثم احتفظا بإحدى الخليتين مجمدة ولم يسمحا له بالتكاثر، ثم أذاباً الغشاء المحيط بالأخرى، والمسمى (zone pellucida) واستعاضا عنه بغ شاء صناعي مكون من

يمكن استنساخ أي عدد من الأجنة من أصل خلية واحدة، وأنه يمكّن الاحتفاظ بأي من هذه النسخ المتطابقة وراثياً، مجدّدة لأي فترة، ثم يسمح لها بالنمو مرة أخرى مما يؤدي إلى نمو جنينين متطابقين وراثياً، ومختلفين عمراً ولأي مدة مطلوبة.[17] وهذا مما يثير العجب؛ إذ قد يكون عمر أحدهم خمس سنوات، والآخر عشر سنوات، وثالث هذه التوائم عمره 15 سنة. والأعجب من ذلك في هذا الأمر هو أن المرأة قد تحمل توأمها الذي فصل عنها حينما كانت بويضة مخصبة لتلده بعد ذلك، فتُصبح أماً لأخي هذا التوأم وأختاً له، وقد تحمل توأم زوجها الذي فصل عن هذا الزوج في أنبوبة الاختبار وتم تجميده لتلده بعد ذلك، فتصبح أمّاً لشقيق زوجها،[18] لذلك ينبغي بيان موقف الفقه الإسلامي من هذه المسألة.

مدى شرعية استنساخ الأجنة

إن الأصل في النسل والذرية أن يكون بالطريق الطبيعي للحمل والولادة، وأن لا يكون إلا بين زوجين، ولا يلجأ إلى الحالات الأخرى إلاّ من باب الضرورة لغرض العلاج والتداوي، كإجراء عمليات أطفال الأنابيب بين بويضة الزوجة والحيوان المنوي للزوج حينما يتعذر التلقيح الطبيعي.

أما دخول طرف ثالث في عملية التلقيح والحمل والولادة من غير الزوجين، ومن غير وجود عقد شرعي، فهذا مما لا يجوز.

واستنساخ الجنين بمعنى الحصول على توائم متطابقة من انقسام بويضة مخصبة واحدة (بطريقة صناعية)، أي فصل الخليتين الأوليين كيميائياً، فهذا يشبه ما يتم بصورة طبيعية في رحم الأم أحياناً في التوائم

مادة هلامية (جل) مستخلصة من أعشاب بحرية، ثم سمحا لهذه الأجنة المستنسخة بالنمو، وحصل العالمان على 48 نسخة جديدة من أصل 17 جنيناً في بداية التجربة، ولكن أيضاً من هذه الأجنة لم يعش أكثر من ستة أيام لأنهما قاما بتلقيح بويضة الأم بحيوانين منويي، والمعروف أن هذه الأجنّة تموت مبكراً في مرحلة العلقة. المصدر السابق، ص: 170.

ولقد لاحظ العلماء الذين سبقوا "جيري هولم" أن الخلية الملقحة عندما تبدأ بالانقسام، وهي في رحلتها عبر البوق إلى الرحم، عندما يصبح عدد الخلايا ثمانية – أي في الانقسام الرابع بالذات والسر في ذلك أن الخلايا بعدها تبدأ بالتخصص- أنه يمكن أخذ سبع خلايا ودفعها إلى التبريد في سائل النشادر 160 تحت الصفر، بحيث تتوقف عن الحياة ولا تموت، في رحلة أهل كهف جديدة، لا تمتد إلى ثلاثة قرون، بل حتى إلى عشرة آلاف سنة، كما يتم في البنك الخلوي الأمركي في رو كفيل ضاحية من واشنطن، وتترك الخلية الثامنة تتابع حياتها الرحمية، فتنتج كائناً كاملاً لا شية فيه. انظر: الدكتور خالص جلبي: مجلة العربي، العدد 463 في يونيو 1997.

17 المرجع السابق، الصفحة نفسها.

18 المصدر السابق، ص170.

التي تحدث نتيجة انشطار البويضة المخصبة. فاستنساخ البويضة المخصبة يجوز في حالات الضرورة لمساعدة المصابين بالعقم، لعلاج بعض حالات عدم الإنجاب إذا تعين الاستنساخ والتوأمة طريقاً للإنجاب، فيكون علاجاً لحالة مرضية، والمريض مأمور بالتداوي، والإنجاب مطلوب من قبل الشارع.[19] فإذا كان الزوج مثلاً يعاني نقصاً شديداً في الحيوانات المنوية، فإننا باستخدام حيوان منوي واحد يمكننا استنساخ عدة أجنة عن طريق تجميده لمدة مختلفة. ويشترط أن يتم التلقيح بين بويضة الزوجة والحيوان المنوي للزوج، وأن توضع البويضة المخصبة بعد الانقسام في رحم الأم صاحبة البويضة، ولا يجوز وضعها في رحم امرأة أخرى (الرحم المستأجر) لأنه لا يوجد عقد نكاح بين الزوج وصاحبة الرحم المستأجر، فيودع الجنينان في الرحم لتضع الأم توأمين متطابقين؛ لأنهما نتاج بويضة واحدة.[20]

أما الاستنساخ الحيوي(Cloning) ، وهو الاستنساخ اللاجنسي، الذي تم بواسطته استنساخ الشاة "دوللي" في اسكتلندا أخيراً،[21] فهو تكوين صورة طبق الأصل بيولوجياً.[22]

إن خلايا الإنسان تتكون من نوعين: خلايا جسدية تكون جسم الإنسان، وخلايا تناسلية تتكون من الحيوانات المنوية، والبويضات. وفي هذه العملية تؤخذ خلية جسدية بالغة، وتوضع في بيئة معينة عن طريق بويضة تنزع منها النواة، كي لا تحتوي هذه البيوضة على أية معلومات وراثية، وتدمج الخليتان بتيار كهربائي، فتخدع الخلية البويضة، وتشعرها كما لو كانت قد تمت بها عملية الإخصاب.

---

19 ورد في الحديث: "لا يدع أحدكم طلب الولد، فإن الرجل إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه"، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن حفصة رضي الله عنها، قال الهيثمي: استناده حسن. انظر: مجمع الوائد، ج4، ص258-259.

20 انظر: م ناقشات الندوة الطبية الفقهية التاسعة التي عقدت في الدار البيضاء بالمغرب برعاية مؤسسة الحسن الثاني للأبحاث العلمية، والمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، ومنظمة الأيسيسكو، بالتعاون مع مجمع الفقه الإسلامي، والمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية، تحت عنوان: "رؤية إسلامية لبعض المشكلات المعاصرة"، جريدة المسلمون، العدد 647 في 27 يونيو 1997 ص7، وترى الندوة أن الطريقة من حيث مبدأ التلقيح سليمة، ولكن تقويمها من ناحية النفع والضرر لا يزال في حوزة المستقبل.

21 قام به العالم الأسكتلندي إيان ويلمت، بعد عشر سنوات من العمل الجاد الدؤوب والذي استغرق 277 محاولة، انظر: مجلة الوطن العربي، العدد 47. في 1997/3/28، ص: 52.

22 استنساخ الشاة دوللي، هذا الإنجاز لا يتعلق بهندسة الوراثة بعمق. فهو لم يُجر أي تعديل في تركيب الجينات، أو في طريقة تعبيرها عن نفسها ونشاطها، وإن كانت هندسة التناسل تستخدم حتماً في هندسة الوراثة، وترتبط به ارتباط الوسيلة بالغاية، والسبب بالنتيجة، ويبرر هذا الارتباط تداخل الكتابات حول هذا الموضوع في وسائل الإعلام. انظر رأي الدكتور مصطفى محمود حلمي: مقال بعنوان: "آخر قنابل هندسة التناسل"، مجلة العربي، العدد 463، في يونيو 1997.

لقد حدثت هذه العملية قديماً في السبعينيات، وطبقت كذلك على أنواع معينة من الضفادع قبل خمسين عاماً، وكانت نسبة النجاح 1٪.

لنبدأ أولاً بمسألة استنساخ الحيوان ومعرفة الحكم الشرعي فيه:

إن إجراء عمليات الاستنساخ على الحيوان، لا مانع منه شرعاً لأن الله سبحانه قد سخر لنا الحيوان ننتفع منه، مثل تحسين النوع، وإكثار النسل، وزيادة اللحم واللبن. فاستنساخ حيوانات خالية من الأمراض الوراثية يفيد في عمليات البحث العلمي، وفي الإنتاج الغذائي، أو الحفاظ على حيوانات تواجه احتمال الانقراض، أو إنتاج قطعان من الماشية في حليبها مزيد من الأنزيمات. وشرط جواز هذا –فيما أراه– مقرون بعدم تشويه الحيوان وتعذيبه، فالناس في الجاهلية كان من شعائرهم تقطيع آذان الأنعام المنذورة للآلهة وتشقيقها ليصبح ركوبها بعد ذلك حراماً أو أكلها حراماً دون أن يحرمها الله، أو إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، فيحرمون ركوبها والحمل عليها، فيشقون آذانها علامةً على ذلك. وكان من شعائر القوم فقء عين فحل الإبل إذا طال مكثه حتى تبلغ نتاج نتاجه ويقال له الحامي،[23] ولذلك جاءت الآية القرآنية منكرة على أهل الجاهلية فعلهم في مسخ الحيوان وتعذيبه وتشويهه، وطمس جمال خلق الله فيها من فقء عيون الأنعام وشق آذانها حيث قال تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء:119)، فالمحرم هنا تشويه الحيوان، وتعذيبه، ومسخه.[24] أما الاستنساخ البشري، فيرى بعض العلماء

---

23 انظر الآلوسي: روح المعاني، بيروت: دار الفكر، ج5، ص150، سيد قطب: في ظلال القرآن، ج5، ص230 الطبعة السادسة، محمد صديق حسن: الدين الخالص، ج2، ص100، السعودية: طبعة المدني.

24 وهناك نوع آخر من الاستنساخ هو الاستنساخ الجيني للنبات وهو مفيد للبشرية، وقد فتح المجال أمام برامج عديدة لتربية النباتات والحفاظ على الأصول الوراثية النباتية المرغوبة فيه من الضياع، وزيادة تكاثر أنواع منها معرضة للانقراض، ولكن هل يجوز تغيير طبيعة النبات والحيوان البيولوجية؟ لا بد أن نذكر أنه لا مانع شرعاً من تطبيق تكنولوجيا التكاثر على مستوى الكائنات الدقيقة باستخدام خصائص الحامض النووي المعاود للالتحام في مجال إنتاج مواد علاجية وفيرة في كل ما ينفع الأمة ويدفع عنها الضرر، انظر: توصيات مؤتمر الإنجاب في ضوء الإسلام ص350، وانظر: رأي الدكتور عبد العزيز البيومي، أستاذ الخلية والوراثة بجامعة قطر، مجلة المجتمع ص:28، وانظر: مجلة الوطن العربي في 1997/3/28، ص52. إن ما يجوز إخضاع الحيوان أو النبات له في عملية الاستنساخ لا يجوز تطبيقه على الإنسان، لأن الله سبحانه كرمه على سائر الخلق، ما خلق الحيوان والنبات وكذلك ما في الارض جميعاً إلا لتسخيره لخدمة هذا المخلوق المكرم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الْأَرْض جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: 13).

"لذلك فلا نجد معارضاً شرعياً في نصوص الشريعة الإسلامية من الناحية النظرية والعملية والتطبيقية يعارض الاستنساخ في غير الإنسان، ما دام ذلك يتعلق بمصحلة الإنسان ذاته، أو بمصلحة غيره، وما يحقق المصحلة العامة والخاصة لكل البشر، ولما لا يغير من خلا الله

إمكانية نجاحه خلال عشر سنوات، خاصةً وقد تم بنجاح تجريب هذا الموضوع على القردة، وهي أقرب الحيوانات الثدييّة للإنسان. ويوجد الآن ثلاثمائة معمل خاص في الولايات المتحدة لهذا الغرض، تمولها شركات تدر أرباحاً طائلة من هذه البحوث، ولكن ما هي المفاسد والأضرار المتوقعة من عمليات الاستنساخ البشري؟

المفاسد المترتبة على الاستنساخ البشري

هناك اتجاه عند بعض الباحثين المعاصرين مفاده: أن موضوع الاستنساخ البشري لم تتبلور أبعاده بعد، ولم تتضح كيفيته وآثاره حتى يمكن بيان حكمه، على الرغم من كل ما قيل وكتب. لذلك لا يستطيع الباحث أن يصل فيه إلى حكم شرعي محدد ونهائي. وبما أن الأمر ما زال غامضاً في حقيقته وغائم الأبعاد، فالواجب عدم التسرع لحين اتضاح الصورة الحقيقية لهذه النازلة لمعرفة دقائق الأمور في كيفية تحققها. ومن السابق لأوانه الحكم القاطع في هذا الموضوع لقصور المعلومات وتوثيقها.[25]

لكن الشيخ نصر فريد واصل مفتي مصر يرى أنه لِكَوْن الاستنساخ البشري من الناحية العلمية لم يقع بعد، ولم يظهر إلى حيز الوجود، فكان مقتضى الحال أن لا نبحث عن حكمه، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما يقول علماء المنطق، ولأن الحكم الشرعي دائماً يتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الطلب أو الوضع. ومن هنا يجب أن ننتظر بيان الحكم الشرعي أو الفقهي حتى تخرج التجربة إلى حيز الوجود، ونتأكد من نجاحها. ولكن نظراً لنجاح التجربة مع الحيوانات الثديية في النعجة دوللي ومع القردة، والإنسان ينتمي إلى هذا النوع، فإنه لا مانع من الناحية الشرعية من التصدي لمعرفة الحكم الشرعي على الإنسان بطريق

تعالى في مسخ الحيوان وتشويهه وتعذيبه، والسير في هذه الحياة طبقاً للقوانين التي أرادها الله سبحانه وتعالى لتحقيق الخير لكل البشرية، ولاستمرار الخلافة البشرية في عمارة هذا الكون إلى أ ن يشاء الله: وما دام الإنسان يعمل فيما استخلف فيه في حدود هذا الاستخلاف الشرعي، ويتصرف فيما ملك فيه في حدود هذا الإذن الذي ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وعلى ذلك فلا قيد على حرية العلماء والباحثين في مجال الهندسة الوراثية والاستنساخ في النبات والحيوان بما فيه مصلحة البشرية، وبما لا يؤثر بالسلب في التوازن المنشود الذي خلقه الله: انظر: رأي الدكتور نصر فريد واصل مفتي مصر، جريدة المسلمون، العدد 547، في 27 يونيه 1997، ص7.

25 انظر رأي الدكتور الأحمدي أبو النور، والدكتور فلاح إسماعيل الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الكويت، والدكتور عجيل النشمي عميد كلية الشريعة السابق، في جريدة القبس، بتاريخ: 1997/3/7، ص6.

القياس على أحد أنواعه الذي تمت معه التجربة في مجال الاستنساخ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء، أو على طريق الفرض والاحتمال المتوقع عقلاً في المستقبل كما هو منهج أهل القياس، والفرضيين وهم الأحناف، وذلك لأنه يصح الحكم عندهم بناءً على ذلك، وفي كتبهم في الفروع الفقهية أحكام كثيرة من هذا النوع. وتجربة استنساخ الإنسان قد بدأت منذ أربعة أشهر في سرية تامة من خلال تجربتين: إحداها بأمريكا، والثانية في بريطانيا، وهم ينتظرون النتيجة النهائية قبل الإعلان عنها.[26]

ولنبين الآن بعض المفاسد المترتبة على الاستنساخ البشري:

أولاً – تغيير خلق الله

يعتبر الاستنساخ تغييراً لخلق الله، وهو مناف للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم:30)، وتغيير خلق الله مَنْهِيٌ عنه، لقد حرم الإسلام مجرد تغيير الجلد بنقش، أو صورة، وعدَّ ذلك تغييراً لخلق الله، إذ لعن النبي صلى الله عليه وسلم: "الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة".[27] وتحريم تلك التغييرات التي يسعى العلماء إلى إحداثها بإحلال التكاثر الجسدي محل التكاثر الجنسي من باب أولى، فالدين الذي يمنع التغيير الظاهري في الوشم والنماص وتفليج الأسنان، ويعتبر ذلك تغييراً منهياً عنه في خلق الله، على الرغم مما فيه من قيم جمالية (المتفلجات للحسن)، فكيف لا يحرم تغيير الخلقة في أصل الخلية الإنسانية؟[28]

---

[26] هذا ما ذكره د. رأفت منيب، الباحث بأكاديمة نيويورك للعلوم في 1997/4/25 بدار الإفتاء المصرية. انظر جريدة المسلمون، العدد 547 في 27 يونيو 1997، ص7.

[27] أخرجه البخاري: "كتاب اللباس – باب وصل الشعر"، فتح الباري، ج10، ص347، رقم 5933، ومسلم، "كتاب اللباس والزينة"، الأحاديث: 115، 117، 119 ع ن أبي هريرة مثله، (وهو كذلك عن ابن عمر عند البخاري برقم 5937).
انظر حديث "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات وامتفلجات للحسن المغيرات خلق الله"، رواه مسلم برقم 2125. وانظر كذلك حاشية ابن عابدين: ج6، ص373، ا بن حزم: المحلى، بيروت: المكتب التجاري، ح11، ص298، ابن قدامة: المغني، القاهرة: مكتبة القاهرة، ج1، ص94، ا لشربيني: مغني المحتاج، القاهرة: طبعة مصطفى الحلبي، ج1، ص191.

[28] ومع ذلك فإن هناك تعديلات في الجسم الإنساني قد حث الشارع عليها ولم يعتبرها تغييراً للخلق، ومن هذه التعديلات: الختان، وخضب اللحية، وقص ما زاد على السنة منها، وحلق الرأس، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، أو نزع جزء زائد، أو خلع ضرس فاسد. انظر الآلوسي، مرجع سابق، ج5، ص150، وكذلك عبد الكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، بغداد: دار الحرية، ج3، ص56.

ومن مفاسد التكاثر الجسدي أنه سوف يكون في استطاعة الإنسان إعادة إنتاج نفسه، أو إنتاج شخص آخر طبق الأصل، وبدون تزاوج، وبأي عدد من النسخ يريد، بأن يصنع من نوية مأخوذة من خلية إنسان كائنا جديداً له الصفات الوراثية نفسها التي للشيخ الذي أُخذت منه نوية الخلية، فيتيح هذا الاستنساخ للناس أن يروا أنفسهم وهم يولدون من جديد، ويمتلئ العالم بتوائم متطابقة. فالمثير في الإنجاز الجديد أن الجنين المتشكل لن يكون خليطاً من سبيكة وراثية نصفه من الأم، ونصفه من الأب، بل سيكون نسخة صادقة دون أي لطخة تزوير عن النسخة الأصلية التي خرج منها، فالكائن الجديد بهذه الطريقة لن يكون مزيجاً من إنسانين، بل نسخة مطابقة تماماً للإنسان الذي أخذت منه خلية جسدية، وكأنه بهذه الطريقة نسخة مصورة (photocopy) بيولوجية عنه، باستثناء أن الجنين الجديد مختلف في العمر، وهي مفارقة بيولوجية يضحك المرء منها ويتعجب، عندما يرى الإنسان نفسه ليس في المرآة، بل في مرآة الطبيعة.[29] ومع ذلك كله فإن الإنسان في الحقيقة ليس جسداً تركيبياً فقط، بل هو مجموعة مشاعر وسلوكيات وعقائد ووجدان وثقافة، وتؤثر التربية في سلوك الإنسان –النسخة الجديدة– وشخصيته، وتتأثر الشخصية الجديدة بعوامل مختلفة: اقتصادية، وثقافية، واجتماعية، بل وتختلف حسب ترتيب الابن بين الأبناء.[30] فإذا ما توصل العلماء إلى هذا الاكتشاف فسوف يحاولون استنساخ أفضل أنواع البشر، شديدي الذكاء، أقوياء البنية، يتحلون بقوى عقلية وبدنية فائقة، وهذا يعني في حد ذاته تغييراً في التوازن الذي أودعه الله بين البشر، ويعني أيضاً: أن تمييزاً عنصرياً قوياً سيظهر، وسيكون من آثاره نوع آخر من (الاستعمار الجديد).[31]

فالاستنساخ تغيير لسنن الله سبحانه وتعالى ، لأن الجنين المستنسخ سوف يحمل صفات وراثية من جانب واحد دون حمل الصفات من الأبوين، وهو الطريق الفطري للإنجاب. وتغيير الخلق والفطرة يتم أيضاً حينما يرى فرد أباه ينمو أمامه، والمعروف أن الأب يحنو على الابن، فهل يحنو الابن على الأب الصغير الذي تم نسخ نسخة منه؟

---

29 انظر رأي الدكتور خالص جلبي: مجلة العربي، العدد 463 في يونيو 1997، مقال بعنوان: "هل يستنسخ البشر؟".

30 انظر رأي الدكتور مصطفى حلمي: مجلة العربي، العدد 463 في يونيو 1997 مقال بعنوان: "آخر قنابل هندسة التناسل".

31 البقصمي، مرجع سابق، ص238، مجلة الشرق الأوسط، العدد 525، يوليو 1996م، بعنوان: "جيل تفصيل".

وهناك إمكانية حمل المرأة لجنينين كل واحد منهما من أصل مختلف، وكذلك إمكان ولادة المرأة العذراء، ووجود نساء يلدن أنفسهن.[32]

أليس في هذا اعتداء على الخلقة الإلهية؟ ألا ينطوي هذا الإنجاز على عبث بنظام الفطرة الإنسانية التي برأه الله؟ أليس تشويهاً لهذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:4)، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:7-8)، والله تعالى لم يعطِ أحداً اختيار خلقته وصورته، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: 68).

إن الاستنساخ يخالف السنن الإلهية والفطرة القويمة، لأن أي محاولة لتغيير خلق الله ما هي إلا تحقيق وتلبية لرغبة الشيطان وهواه ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾ (النساء:117-119).

لأجل ذلك كله فالتكاثر الجنسي هو الطريق الذي يمثل الفطرة ويمثل الطبيعة المحكمة الصنع: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل:88)، وهو خير من التكاثر اللاجنسي الذي يؤدي إلى اختلاف الطبيعة. والله خلق الكون كله أزواجاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذريات:49)، وفي الاستنساخ إبطال لهذه القاعدة الربانية.

ثانياً: القضاء على استقلالية الإنسان

إن الفطرة الإلهية في خلق الإنسان هي أن يكون لكل فرد شخصيته المستقلة، وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد، وإنتاج النسخ المتشابه ذات الصفات الوراثية الموحدة يقضي على هذا التمايز الفطري، إذ سيصبح نسخاً مكررة لآلاف غيره. وأهمية كل مخلوق تكمن في كونه يتميز من كل ما حوله، وذلك أن كل إنسان منا يحمل أشياء تميزه بالذات، لا يستطيع شخص آخر أن يحملها، مثل بصمات الأصابع والبصمة الجينية،

32 الدكتور عبد العزيز البيومي: مجلة المسلمون، العدد 633، ص1.

والبصمة الصوتية. لكن هذه التقنية الجديدة يمكن أن تقلب مفاهيم الإنسان، وخصوصياته على نحو كامل. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:22)، واختلاف الألسنة –البصمة الصوتية– وهي مختلفة كاختلاف البصمات الأخرى، واختلاف الألوان هو الاختلاف في الصور، إذ جعل لكل إنسان صورة خاصة به تميزه من غيره.

والاستنساخ يفسد الحياة إذ يقضي على تمايز الناس، وآنذاك لا يعرف من هو الزوج إذا تعددت النسخ، فإذا كانت هناك خمس نسخ من زوج، فأيهم يمارس العلاقة الشرعية مع الزوجة، ولا تُعرف من هي الزوجة، ولا يعرف من هو المجرم الحقيقي من بين هذه النسخ الكثيرة، ومن هو الشخص البريء، ولا من هو الممتحن في قاعة الامتحان، وبذلك تضيع الهوية الحقيقية للشخص. فالاستقلال الشخصي لكل إنسان هو الذي على أساسه يخاطَب، ويحاسَب، ويثاب، ويعاقب، ويتحمل المسؤولية في الدنيا والآخرة.[33]

فالتنوع هو الدافع الأساس لعجلة الحياة، ومن ثم ينبغي حفظه من المخاطر التي تهدده في خضم هذا التطور الصناعي التكنولوجي، فحكمة الله في خلقه ومشيئته: التنوع بين البشر إذ جعله الله سبحانه من خصائص جهاز الوراثة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَ﴾ (الروم:30). وأي هدم وتغيير لخلق الله في هذا التنوع إنما هو هدم لبنيان الإنسان الذي هو بنيان الله، ولتلاعب بالنظام الدقيق الذي يحفظ توازن الحياة والبيئة والإنسان مغامرةٌ خطيرة تزج بهذا المخلوق في ظلمة لا يقدر قسوتها حتى يجد نفسه محاصراً بها.

فالتباين والتنوع عند علماء الوراثة يسهم في حيوية الأجناس واستمراريتها، والتماثل ووحدة النوع والاستنساخ يضعف الجنس، وقد ينتهي بكوارث من المرض والطاعون يودي بحياة البشرية جميعاً.[34] وسر الحياة في اختلاف الجنس والنوع.[35]

ثالثاً: القضاء على وحدة الأسرة

---

33 انظر: رأي الدكتور يوسف القرضاوي في مقابلة مع مجلة المجتمع، بتاريخ: 1997/4/1، ص30، تحت عنوان: "الاستنساخ قد يؤدي بالبشرية ويدمر الإنسان نفسه بنفسه".

34 انظر الحفار، مرجع سابق، الصفحات: 91، 197، 203، 213.

35 الدكتور أسامة رسلان، أستاذ الميكروبولوجيا بطب عين شمس، مجلة المجتمع، بتاريخ: 1997/4/1، ص23.

ومن المخاوف المستقبلية لهذا العلم أيضاً إحداث خلل جسيم في العلاقات الإنسانية. وفي مجال الأسرة، فإن المنجزات الجديدة في علوم الهندسة الوراثية قد تؤدي إلى تفكيك الأسرة والتكوين العائلي، والقضاء على مفهوم الأمومة، وانتهاء عصر الرجال، وزمن الأزواج. إن هذه النسخ ليست بحاجة إلى أب أو أم بقدر ما هي بحاجة إلى مؤسسة تقوم برعايتها، وقد تم إنماؤها في أجهزة خاصة، وعندئذ تصبح مصطلحات: الأمومة والوالدية والتواصل الأسري، من مخلفات الماضي. إن الأسرة في الإسلام والأديان جميعاً مبناها الزوجان وما بينهما من مودة ورحمة وحين عشرة، أما الاستنساخ فهو تكوين ذرية دون تزاوج بين طرفين وإلغاء وظيفة التناسل في حياة البشر. وآنذاك قد يغير من العلاقة بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات لأن النسخة هذه تكون مطابقة للأم أو الأب فقط، وغريبة عن الطرف الثاني تماماً، وتضيع الأنساب بين أنياب الهندسة الوراثية وأضراس التكنولوجيا البيولوجية.

وماذا لو تم الأمر ووقعت الواقعة، وزرعت خلية امرأة في بويضة امرأة أخرى؟ أو زرعت خلية المرأة نفسها في بويضتها، فهل يكون المولود (البنت): المرأة نفسها، أو أخت المرأة، أو ابنة المرأة؟ وما علاقة المولود بزوج المرأة، هل يشمله آنذاك قوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش"، على أساس أن المولود ليس من ماء الزوج قطعاً، وليس كذلك من ماء رجل آخر. وماذا لو استخدمت خلية الابن الأكبر، وزرعت في بويضة الأم، فخرج المولود مشابهاً للابن الأكبر، فهل يكون المولود المستنسخ: توأم أخيه، أو نفس أخيه؟ وإذا زرعت خلية رجل في بويضة ابنته، وخرج المولود نسخة من الرجل، فهل يكون الطفل المستنسخ: الرجل نفسه، أو أخ الرجل، أو حفيد الرجل؟ وماذا لو أنجب الأموات من بين ذرات الثرى عن طريق خلاياهم المجمدة، وجيناتهم المحفوظة في ثلاجات المخابر العلمية؟

فكيف يكون حال المجتمع بعد تفكك الأسرة وتمزقها، بل واندثارها وتلاشيها؟ وأي دمار يلحق بالمجتمع آنذاك في حالة هدم قدس الأمومة والأبوة والأسرة، الأسرة التي أطلق عليها القرآن الكريم: السكن والمودة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:21)، وأطلق الفلاسفة عليها سابقاً: ممتص الصدمات العملاق، هذا المكان الذي يعود إليه الإنسان بعد كد الحياة وكدحها وعنائها ليستريح في ظلها، ويتداوى

من جراحات السعي والصراع، إن ممتص الصدمات العملاق هذا سوف يُخترق.[36] وآنذاك فلا الرجل، ولا المرأة بحاجة إلى أسرة للحصول على طفل، وهذا تمردٌ على سنة الله في خلقه. إن عملية كهذه قد تلغي الحاجة إلى الزواج في بعض المجتمعات طالما أن الإنسان يستطيع أن يحصل على نسخة من نفسه بدون المرور بأي شكل من أشكال الإنجاب. ولذلك فإن الاستنساخ سوف يوقع في إشكالات شرعية وقانونية وشرعية واجتماعية عديدة بشأن العلاقة بين الإخوة، أو الآباء المستنسخين مع من هم من الصلب نسباً، وقضايا الميراث ونحوها. فالاستنساخ لا يحترم العلاقات الأسرية والنسبية، واختلاط الأنساب هذا يصادم أصلاً من الضروريات المطلوبة المحافظة عليها،[37] وفي كل ذلك إهدار لكرامة الإنسان وآدميته، وهو نوع من الإفساد في الأرض.

رابعاً: ومن المخاوف التي أثارها بعض الناس وقوع هذه التكنولوجيا المتطورة في يد سلطات ديكتاتورية عدوانية تستغلها أبشع استغلال، وتسعى إلى الاستفادة منها لغرض التسلط والسيطرة على العالم وسحق خصومها بلا رحمة. وماذا يمنع آنذاك طاغية من الحكام من إنجاب عناصر من العبيد يقوم باستنساخهم ولهم من الذكاء والتكون ما يجعلهم قاصرين على الخدمة والإخلاص، أو يقوم هذا الطاغية الذي هو ضليع في الإجرام وسفك الدماء، فيكون أشد الناس حرصاً على استنساخ نفسه لأنه أكثر نرجسية من غيره، فتنتشر مثل هذه العقول ذوات النزعة الإجرامية والعدوانية،[38] فيكون ذلك فرصة للحصول على قطيع من الأغنام والقردة في عمليات الاستنساخ.

ولكن يرد على ذلك: أن الاستنساخ يُنتج نسخة طبق الأصل وراثياً، لكنه لا ينقل السلوكيات والخبرات من الأصل إلى النسخة، فهذه نتيجة لتفاعل التركيب الوراثي للفرد مع البيئة؛ ولكي نحصل على نسختين متطابقتين تماماً، فلا بد أن يكون التركيب الوراثي متطابقاً أثناء نمو كل من الأصل والمستنسخ أيضاً، وهو شيء صعب التحقيق، إذ يصعب أن تكون النسخة متطابقة في ثقافتها وخبراتها وسلوكياتها مع

---

36 الحفار، مرجع سابق، ص98. يقول العالم (ليندربرج) في كتابه التحول المقبل في العالم: إن الأسرة ت قترب من نقطة الانقراض التام بفعل منجزات التغيير والجدة في نطاق تحسين النسل وهندسة الوراثة، المرجع السابق، ص95؛ أما لندبرج: فهو عالم من علماء الوراثة، حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1985.

37 مقابلة مع الدكتور عجيل جاسم النشمي عميد كلية الشريعة سابقاً، جريدة القبس، بتاريخ: 1997/3/7، العدد: 8515، ص6.

38 انظر الحفار، مرجع سابق، الصفحات: 91، 197، 203.

الأصل، وهذا يصدق أيضاً على استنساخ عبقرية فنية، أو علمية. فمن غير المنطقي أن يعتقد الناس أن استنساخ مهندس أو طبيب سينتج مهندساً أو طبيباً مرة واحدة، بل يجب أن تمر النسخة بجميع المراحل التي مر بها الأصل، وتحت تأثير الظروف نفسها. فالوراثة ليست هي الأساس الحاسم المتحكم في شخصية الفرد، وإنما البيئة هي العامل المحرك، فالتوائم المتماثلون يتفقون في الصفات الوراثية حيث تنقسم لبويضة نصفين، إلاّ أن البيئة تظهر الفروق الفردية، والله سبحانه وتعالى جعل كل فردٍ كائناً متفرداً بنفسه.[39]

أما استنساخ مشاهير الموتى كأنشتاين وغيره، أو استنساخ صورة توأمية لأولئك العباقرة الذين ماتوا منذ سنين لكي يسهموا في حل المشكلات والمعضلات التي نواجهها في عصرنا هذا فمتعذر كما يقول المتخصصون، لأن الاستنساخ لا يتم إلاّ بخلية حية.[40] وهناك أيضاً إمكانية نسخ أموات حفظت خلاياهم أو جثثهم عند درجة التجميد (خلود الأثرياء والعلماء)، وهذا مما قد يؤدي إلى تفشي الأمراض، أو ظهور أمراض جديدة. ويعتقد العلماء أن تجميد الخلايا وزراعتها يمكن أن يؤدي في الغالب إلى تغيرات في الخلايا.[41]

ومن مفاسد الاستنساخ أيضاً إمكانية استنساخ البشر على الرغم من إرادتهم، ودون علمهم،[42] ويتم ذلك بأخذ خلية جسدية منهم بأية طريقة من الطرائق، وهذه كارثة كبرى أيضاً، لأن ذلك تدخل في أخص خصوصيات البشر، واعتداء على الخلق، ومحاولة للنيل من القواعد الطبيعية والفطرية للفرد والأسرة والمجتمع.

خامساً: تعود خطورة الاستنساخ أيضاً على تعلقها بحقوق الإنسان ومصالحه، وتتعلق هذه العملية بكلية النفس ووجود الإنسان التي هي إحدى المقاصد الأساسية للشارع، ويتبع ذلك العقل ثم النسل ثم الدين، والدين لا يعرف إلاّ من خلال العقل، أي أن هناك أربع كليات أساسية تهدمها قضية الاستنساخ.[43]

---

39 جريدة المسلمون، 14 مارس 1997، ص5، ومجلة المجتمع، 1997/7/18، ص35.

40 الدكتور مختار الظواهري، أستاذ الوارثة الطبية في جامعة الكويت، ندوة علمية بجامعة الكويت بكلية العلوم، بتاريخ: 23 مارس 1997، المجتمع، ص25.

41 الدكتور خالد عبد الله العلي، مدرس الوراثة بجامعة قطر، المرجع السابق، ص9.

42 مجلة الوطن العربي، العدد 1047، بتاريخ: 1997/03/28، ص52.

43 انظر الكتور نصر فريد واصل، مفتي الديار المصرية، مجلة المجتمع، المرجع السابق، ص24.

ولذلك فإن هذه الإمكانات البيولوجية ستثير موجة من الاضطراب العارم في النظام الاجتماعي القائم حالياً[44] وستهدد كثيراً من المصالح التي تدور حولها الأحكام الشرعية.

ويمكن أيضاً بواسطة هذا العلم إيجاد جنين أو مولود ينتمي إلى أكثر من أبوين، بل إلى أبوين متوفيين، أي أن الطفل يجد نفسه ابناً لأكثر من أبوين من الناحية البيولوجية، وهذه أمور كان قد تم سابقاً إنجازها في إنجاب الحيوان (الفئران المتعددة الأنساب).[45] ولكن ماذا سيكون –في ظل هذا الإنجاز العلمي– مصير قانون الأسرة وقانون الملكية والميراث، أليس هذا هدماً لكليات الدين ومقاصده؟ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَ﴾ (الطلاق: 1).

لذلك ينبغي تحريم كل الحالات التي يقحم فهيا طرف ثالث على العلاقة الزوجية سواء أكان رحماً، أم بويضة، أم حيواناً منوياً، أم خلية جسدية للاستنساخ، ومنع الاستنساخ البشري العادي، فإن ظهرت مستقبلاً حالات استثنائية ثبتت لها فائدة واتسعت لها حدود الشريعة عُرِضت لبيان حكمها الشرعي، على أن تبحث كل حالة على حدة.[46]

المفاسد المترتبة على الهندسة الوراثية عموماً

ومن مفاسد الهندسة الوراثية عموماً التلاعب بالجينات البشرية، وذلك في حالة إعادة تركيب مادة الـ DNAعن طريق إضافة أجزاء من هذه المادة إلى كائنات أخرى، ولكن سلوك التركيبة الجديدة لا يمكن التنبؤ به. لأجل ذلك فإن محاولات العلماء تلك تدخل في دائرة المحرمات بسعيهم إلى تغيير التركيب الوراثي للإنسان، وتحويله إلى كائن ذي صفات خاصة بحيث يؤثر في طبيعته وذكائه وسلوكه، ومن ثمّ يصبح إنساناً عدوانياً أو مسلوب الإرادة.[47]

---

44 د. أحمد شرف الدين: مؤتمر الإنجاب في ظل الإسلام، ص36.

45 مجلة الوطن العربي، العدد 1047، بتاريخ: 1997/3/28، الحفار، مرجع سابق، ص98، ومجلة المجتمع، مرجع سابق، ص9.

46 "الندوة الفقهية الطبية التاسعة – المغرب"، جريدة المسلمون، العدد 547، بتاريخ: 27 يونيو 1997، ص7.

47 البقصمي، مرجع سابق، ص238 و334.

فالعبث بنطف الإنسان باسم العلم مرفوض شرعاً وقانوناً وأخلاقاً؛ لأن البحث العلمي يصبح بذلك من أدوات الدمار المادي والروحي للإنسان الذي كرمه الله على سائر خلقه.[48] وإذا كان هدف العلماء في التوصل إلى التحكم في الخلايا الوراثية هو تخليص الإنسان من بعض أنواع الغرائز والسلوك غير المرغوب فيه، كالتخلص من غريزة الغضب والاعتداء الذي يمكن أن يشكل خطورة على المجتمع كما يدعون، أوليس في ذلك تغيير من طبيعة البشر يؤدي إلى اختلال التوازن الفطري للحياة؟[49]

إن التلاعب بنطف الإنسان وتغيير صفاته الفيزيائية والعبث بها لإيجاد الإنسان المحسن –أو ما يسمونه بالسلالة الممتازة من البشر– مرفوض، وكذلك الاعتداء على خصوصياته، وتغيير خريطته الوراثية بتغيير شكل جسمه ولونه وجماله، وتغيير شخصيته وعقليته ونفسيته، كما يراد لها من قبل بعض العلماء الذين يعملون في المختبرات السرية وغير السرية مما هو انتهاك لحرمة الإنسان، كمحاولتهم إقحام الرجل في عملية الحمل، إذ يبحث بعض هؤلاء العلماء في إمكانية الحمل عند الرجل.[50] إن هذا العمل يعتبر تغييراً لسنة الله في خلقه، فامتداد الأيدي البشرية إلى الجينات لتغيير الخلقة من شأنه أن يؤدي إلى كوارث بشرية. ولا ندري ما سيحدث على المدى الطويل لو سمح بهذا التلاعب والعبث، وأي خطورة يمكن أن تقع على الإنسانية.

---

48 هذا وقد أعرب سبعمائة عالم حضروا مؤتمر جامعة (ييل) عن قلقهم تجاه قضايا أخلاقية في حال التحكم في الصفات الوراثية.

49 ولقد بلغت شطحات الخيال العلمي ببعض علماء الهندسة الوراثية وسحر البيولوجيا منتهاها، لتغيير الخلق والفطرة وصنع صور جديدة للحياة، فمنهم من يأمل في المستقبل أن يحمل الرجل بدل المرأة، ومثل محاولتهم الخلط بين الأجناس المختلفة من حيوانات ونباتات بهدف استخدامهم لأغراض متعددة، كأن يتم الخلط بين الإنسان والنبات بهدف تخليق كائن يعيش على التركيب الضوئي أو ما يسمى (الإنسان الأخضر) فيتم آنذاك القضاء على غريزة الجوع. ويحصل للإنسان الاكتفاء الذاتي في طعامه مثل النباتات. ومن طموحاتهم: إنشاء رجال ركبت لهم خياشيم بواسطة الجراحة ليستطيعوا العيش تحت الماء. كما ستصبح (مودات) الأجساد البشرية مثل (مودات) الملابس، تأتي واحدة وتدبر أخرى. وفي الاتحاد السوفييتي السابق، وفي معهد التطور البيولوجي بأكاديمية العلوم يتنبأ العالم (نيفاكش) في برود مخيف. بأن العالم سوف يشهد عمّا قريب سباقاً سلالياً مماثلاً لسباق التسلح، ويبني هذا العالم وجهة نظره على اعتقاده بأن القوى الرأسمالية منشغلة في الصراع على طلب العقول وستجد حكومة ما أو أخرى مضطرة إلى استخدام تصنيع السلالات لتزيد من إنتاجها من الأفراد الموهوبين والعباقرة عن طريق هندسة الجينات. ألا تبدو هذه الأفكار وكأنها من تصورات عقار الهلوسة أو صورة تعكسها مرآة مشوهة كما يقولون؟

انظر محمد سعيد الحفار، مرجع سابق، الصفحات: 99، 112، 115، 118، وناهة البقصمي، المرجع السابق، ص202، ود. عبد المحسن صالح: التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، الكويت: عالم المعرفة، 1984، ص110-115.

50 انظر مجلة (The New York Revue of Books)، مرجع مشار إليه في جريدة المسلمون، العدد 283، بتاريخ: 1990/7/12، ص5: "الهندسة الوراثية تنطلق من الأنابيب لتدمير البشرية".

فالمعيار الشرعي في هذا العلم هو جواز ما وافق الفطرة منه، وما تقوم به المصلحة التي لا تتناقض مع كليات الشريعة.

لذلك ينبغي أن لا يترك علماء الهندسة الوراثية وشأنهم ليصنعوا هذا التغيير الجديد ويعبثوا بهذا العلم، وربما تكتوي الإنسانية بنتائجه غير المحسوبة، خاصة وأن القرن الواحد والعشرين ربما يدخل التارخي باعتباره قرن تطبيقات الهندسة الوراثية. ولذلك بات من الضروري اتخاذ التدابير والإجراءات التي تحول دون العبث بالجسم البشري، ووضع حدود شرعية وقانونية للتصرف بالجينيات الوراثية لصالح البشرية جمعاء حتى لا تقع في أيدٍ تستخدمها في تغيير سنن الخلق وتبديل الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بالجناية عليها، والعبث بها، والإفساد فيها، وذلك بالتعاون الوثيق بني علماء الهندسة الوراثية وعلماء الشريعة حتى نحمي هذا العلم من تسخيره فيما لا يُرضي الله تعالى.

وأريد أن أبيّن هنا أن بعض ما ذكرنا إنا هو توقعات مستقبلية، نحكم عليها من خلال منظور الحاضر، فهو بيان أحكام شرعية لقضايا محتملة، وقد يكون بعض هذه الأحكام سابقاً لأوانه، ذلك أن مثل هذه القضايا لا تزال محصورة في المختبرات ولم يظهر تأثيرها الفعلي بعد في الإنسان. والأمر يحتاج إلى بحوث أخرى؛ لذا فإني أقترح أن يتخصص بعض الفقهاء والباحثين الشرعيين في الفقه الطبي، لدراسة التطورات البيولوجية والهندسة الوراثية طبياً، وشرعياً، تكييفاً وتوجيهاً لهذا العلم وفق أحكام الإسلام ومقاصده، حتى تتحقق إسلاميته.

والاجتهاد الجماعي في مثل هذه القضايا أسلم طريق لذلك. ولبحث المشكلات الحقيقية في هذا المجال، ولكي نتثبت أكثر في التمييز بينها وبين المشكلات الخيالية أو السطحية التي يتخيلها بعض الكتاب والصحفيين والتي ينشرونها لغرض الإثارة والتشويق، لا بد من تعاون العلماء والأطباء الذين لهم علاقة بهذا الموضوع من أجل دراسة الإشكالات الأخلاقية الحالية والمستقبلية المتصلة به، ولدفع عجلة العلم مع الحذر الشديد من تغيير خلق الله، والفطرة التي فطر الناس عليها –وذلك مراد الشيطان بنص القرآن– بما يؤدي إلى إهدار كرامة الإنسان وآدميته، أو إلغاء إرادته الحرة، وإلاّ جاء عقاب مخالفة الفطرة قاسياً ومدمّراً.

ومن مخاطر هندسة الجينات أيضاً أن تُطور جرثومة، أو يظهر ميكروب غريب يتحول إلى نوع خطر جداً أثناء التجارب، مما يمكن أن يسبب أمراضاً لا يعرف لها مضاد لعلاجها فيؤدي ذلك إلى كارثة وبائية تهدد الحياة بأكملها.

إن مثل هذه البحوث تجري حقاً في إطار الحرب بالبيولوجية[51] ويُخشَى أن تنتقل خلايا معينة قد تسبب أمراضاً وراثية إلى العاملين عن طريق الفم مثلاً، فتسبب أمراضاً شبيهة بمرض السرطان لا يعرف له علاج، أو ربما يحدث خطأ ما في هذه التجارب يؤدي إلى عواقب وخيمة، أو قد يؤدي إنتاج أنواع وأصناف جديدة إلى خلل في التوازن البيئي الطبيعي بحيث تطغى الأنواع والأصناف الجديدة على أنواع وأصناف كان لها دور مهم في البيئة.[52] فتغيير صفات كثير من الكائنات الحية وأنواعها في إطار هندسة الوراثة هو في نظرهم أشد خطراً على حياة الأجيال المقبلة من الطاقة النووية ومشكلاتها. وكل غزو للطبيعة له مخاطره، والضحية في النهاية الإنسان نفسه.

ويبقى أن نذكر أنه إذا كان التغيير في الجينات ضرورة تقتضيها مصلحة الفرد والمجمع كتغيير سلوك إجرامي، أو العلاج والوقاية من مرض معين، وذلك بعلاج جينات مريضة وإدخال جينات طبيعية سليمة بدل المريضة، وهذا ما يسمى (العلاج بالجينا)، وإذا ثبت علمياً إمكان ذلك من دون توقع مفسدة أكبر

---

51 الحفار، مرجع سابق، الصفحات: 19، 190، 253.

52 إن عناصر الطبيعة المختلفة وكما أرادها خالقها قد تعايشت منذ مئات الألوف من السنين بحيث يعتمد بعضها على بعض في توازن دقيق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلّ شَيْء مَوْزُون﴾ (الحجر: 19). وتدخل الإنسان أحياناً قد يؤدي إلى اختلال هذا التوازن الفطري في الوجود، وإننا نعلم إلى أي حد أعجب الناس في العالم بأسره بتجربة الصين الرائدة حين قضت في أيام قلائل على العصافير التي كانت ت تكاثر بالملايين، وكانت تهدد محاصيل الحبوب، ولكن هذا القضاء المبرم على العصافير قد تبين بعد سنوات قلائل، أنه ألحق ضرراً بالتربة الزراعية، لأن العصافير كانت تأكل ديدانها التي تفرز سموماً، فلما اختفت العصافير تكاثرت هذه الديدان إلى حد كان له ت أثيره الضار في خصوبة التربة. انظر د. فؤاد زكريا، التفسير العلم، سلسلة عالم المعرفة، العدد 3، آذار 1978، ص232. وفي ندوة عقدت بدولة الكويت تحت شعار "الاستنساخ بين الشريعة والعلم" ذكر الدكتور علي العمير مدير المختبر التحليلي المركزي بمعهد الكويت للأبحاث العلمية أن التجارب القديمة التي تصطدم بسنة الله في الكون انتهت بالوبال، فعندما حاول الإنسان تغيير سنن الله بالزواج وجنح إلى الحرام خلافاً لسنن الله انتهى به الأمر إلى مرض الإيدز، وكذلك ع ندما جاء الإنسان ليسممن الأبقاء والماشية فعبث بعوالقها واستخدم بعض الهورمونات وغير الحشائش التي جعلها الله غذاء اللحيوان، وأخذ يطعمها اللحوم ومساحيق الشحوم مما أدى إلى نهاية وخيمة، وهو ظهور "جنون البقر" فأي تغيير غير محسوب في البيئة والطبيعة، ربما يؤدي إلى كارثة. انظر: جريدة المسلمون، العدد 645.

تنجم عنه، فلا أرى في ذلك بأساً من الناحية الشرعية؛ لأنه يدخل في باب التداوي والعلاج، حيث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتداوي بقوله: "تداووا عباد الله".[53] واستخدام هذا العلم في العلاج معناه إنقاذ الإنسان المعوق والمريض والمشوه، وإعادته إلى أصل الخلقة الربانية القويمة التي فطر الناس عليها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:4).

هل يحقق الاستنساخ البشري مصالح شرعية؟

لقد شهد العلم ردود فعل متباينة حول مشروعية تطبيق هذا النوع من الاستنساخ الجيني على البشر. فقد انقسم المهتمون بهذا الأمر إلى مؤيدين ومعارضين لمثل هذه التجارب. وتتمثل حجة العلماء المؤيدين[54] في الآثار الإيجابية التي تنتج عن الاستخدام النافع لهذه التقنية المتقدمة لصالح الجنس البشري والاستفادة منها في تحسين صحة الإنسان ووقايته وشفائه من الأمراض. ثم إن نتائجها الطيبة تفوق نتائجها السيئة.[55] ومن

---

53 انظر سنن أبي داوود: ج4، ص3، سنن الترمذي: ج4، ص383، سنن ابن ماجة: ج2، ص1137. صحيح البخاري بهامش فتح الباري: ج10، ص113، صحيح مسلم بهامش النووي: ج14، ص191.

54 يحتج أنصار هذا الاتجاه، بأن عملية الاستنساخ طبق الأصل ليس فيهه تجاوز على قانون الطبيعة والفطرة، فقد أخذ العلماء فكرة الاستنساخ الحيوي من الطبيعة نفسها، إذ إن بعض الكائنات الحية تستطيع تحت ظروف معينة أن تتحول من التكاثر الجنسي إلى التكاثر الجسدي، مثل الكائن البدائي (الهيدرا HEDRA) هذا الكائن له قدرة على أن يتحول إلى كائن كامل النمو إذا ما تعرض للانقسام لأي سبب من الأسباب، إذ حين يشطر إلى شطرين يتحول كل شطر منه إلى كائن كامل.
وهناك التكاثر الخضري في كثير من النباتات والذي ينتج عنه استنساخ لنفس النبات الأم، كما أنه يحدث أيضاً في الكائنات وحيدة الخلية وينتج منها نسخ متماثلة تماماً من الخلية الأم، انظر البقصمي، مرجع سابق، ص94-95. ونقول في الجواب عن هـ ذا التبرير، بأنه لا يجوز قياس الإنسان – الكائن المكرم عند الله. على كائن بدائي مثل الهيدرا، أو قياسه على النبات فالله تعالى خلق الحيوان والنبات وسخرهما وما في الكون جميعاً لخدمة هذا المخلوق المكرم. فليس كل ما جاز تطبيقه على الحيوان والنبات يجوز تطبيقه على الإنسان.

55 يعتقد بعض الباحثين أن عملية الاستنساخ في قصة الشاة دوللي تقرب إلى عقولنا كثيراً من الألغاز الفلسفية، منها المغزى الفلسفي العميق خلف ولادة السيد المسيح دون أب، باستنساخه من أم وحدها. وودلاة سارة بعد أن أصبحت عجوزاً عقيماً.
وقد يمكن الاقتراب من سار امتداد عمر نوح عليه السلام حتى لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. انظر رأي الدكتور خالص جلبي: مجلة العربي، العدد 463 في يونيو 1997.
والذي يبدو لي: أن القول بأن سيدنا عيسى عليه السلام –الذي خلقه الله من أم بلا أب– قد استنسخ من خلية من السيدة مريم العذراء، أو أن حواء التي خلقها الله من غير أم، قد استنسخت من خلية من سيدنا آدم عليه السلام، أمر يحت اج إلى نظر، وبيان ذلك: أن ولادة السيد المسيح، وخلق حوّاء معجزة خارقة للنظام، وليس وفق النظام، وسنن الطبيعة، والمعجزات بحق الأنبياء أمر ثابت. هذا من ن احية العقيدة، أما من الناحية العلمية: فإن أي أنثى من بني البشرة لا تحمل الكروموسومات المسؤولة عن جنس الذكورة، أي أن تحديد جنس المولود يتوقف على والده لا والدته، والسيدة مريم أنثى، والسيد المسيح ذكر، ولا يمكن استنساخ ذكر من خلية أنثى

الممكن تجنب سيئاتها بوضع بروتوكول خاص يلتزم به العلماء، ويوجههم لاتخاذ كل الاحتياطات اللازمة،[56] وتشمل المنافع الناتجة عن ذلك المجالات الآتية:

أ- استخدام الاستنساخ في زراعة الأعضاء، والانتفاع من أعضاء النسخ المتطابقة كقطع غيار لإصلاح الأنسجة التالفة للمريض (النسخة الأصلية)، فيتحول الكائن (الصورة) إلى مجرد (احتياطي) للكائن الأصل، فتستنب النسخ المجمدة مثلاً إلى عمر معين يمكن معه انتزاع أعضائه لصالح العطب الموجود في النسخ الأصلية. أما ما يبقى من أعضاء النسخة الأخرى فيرمى. وبذلك يمكن للإنسان العادي أن يؤمّن نفسه صحياً عن طريق استنساخ نفسه، خاصة وأن هذه النسخة مطابقة له تاماً. وبذلك يمكن التغلب على أخطر مشكلات نقل الأعضاء البشرية، تلك المشكلات المتمثلة في عدم توافق أنسجة المريض مع أنسجة المنقول منه: فمثلاً لو احتاج المريض إلى قلب، أو كلية، أو عين، أو إذا كان يعاني أمراض نخاع العظام، فسوف تؤخذ العظام نفسه الذي يمكن نقله إلى جسم المريض لينمو بدلاً من النخاع المصاب، ويحمل كذلك صورة مطابقة تماماً لقلب هذا المريض وكليتيه وعينيه وكبده ورئتيه.

ب- ومن هذه المصالح أيضاً إمكان استخدام نسخ مصابة بأمراض وراثية (في عمليات الاستنساخ).

والسؤال الذي يرد: هل يجوز شرعاً الانتفاع من النسخ البشرية لتحقيق تلك الأهداف في زراعة الأعضاء، ومعالجة الأمراض، واختبار فعالية الأدوية، وغيرها؟

وجينات أنثى، فتفسير ولادة السيد المسيح من غير أب لا يتفق مع قواعد الاستنساخ، إذ حسب هذه القواعد كان ينبغي أن يشابه المستنسخ المستنسخ منه، ولكان عيسى أنثى، وحوّاء ذكراً، لذلك فليس من الصواب إقحام مثل هذه المعجزات في مسائل الاستنساخ البشري وقضاياه، انظر: مجلة العربي، العدد: 467 في 1997، ص6، وص120.

56 ولكن ما مدى جدية تنفيذ هذه البروتوكولات، وخاصة إذا علمنا أن هناك قوى وراء هذه الأبحاث، وشركات كبرى، فهل يستطيع القانون وحده منع هذه العجلة العلمية الجارفة من الدوران؟ وهل ستكون التشريعات قادرة على حظر هذه التجارب، أو عدم دعمها ، ومنع الشركات من ذلك على أقل تقدير، أشك في ذلك كثيراً، فهل حقق قانون منع المخدرات هدفه المرجو منه مثلاً؟ فالقوانين قد تمنع ما يجري علناً ولكنها لن تكون قادرة على منع ما يجري في الخفاء مع قوة الإغراءات المالية والعلمية. وأكثر ما نخشاه كما بينت الندوة الطبية الفقهية أن يسعى رأس المال الخاص وشركات الأدوية إلى تخطي الحظر بتهيئة الأموال واستمرار الأبحاث في دول العالم الثالث. واستغلالها حقلاً للتجارب البشرية كما كان ديدنها في كثير من السوابق، لذلك ينبغي الحيلولة دون اتخاذ البلاد الإسلامي ميداناً لهذه التجارب، انظر الندوة الفقهية الطبية التاسعة في المغرب، مجلة المسلمون، العدد 547، في 27 يونيه 1997، ص7.

والذي يبدو لي: أنه لما كان الناس متساوين في الحقوق، ولا يجوز أن يطلب إنسان إحياء نفسه بقتل غيره، أو سلامة أحد أعضائه بقطع عضو من أعضاء غيره، والقاعدة الشرعية تنص على أن "الضرر لا يزال بمثله"، فإن تعريض النسخ الأخرى للقتل أو استلاب أعضائه وأنسجته بدون وجه حق هو أسوأ ما تمتهن به إنسانية الإنسان، وهو إخلال جسيم بالتكريم الإلهي له: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:70). لذلك وجب الابتعاد عن كل ما يلحق المهانة بهذا الكائن الإنساني، وأي تصرف فيه بقتل أحد لصالح آخر إنما هو مهانة بالغة. إذاً فإن للنسخ المتطابقة الحقوق نفسها التي للنسخ الأصلية، وكما لا يجوز الانتفاع بالنسخ المتطابقة لصالح النسخة الأصلية، كذل لا يجوز أن نهدر حقوق النسخة الأصلية لأجل النسخ الأخرى إذا طالبت النسخ المتطابقة بحقوقها وأصرت أن تكون هي المتلقية للأعضاء، وليس الشخص الأصلي.

ويرى بعض العلماء أنه يمكن الاستفادة من النسخ الأخرى بأن نعطل حواسها بحيث تصبح فاقدة الوعي، وعندها فإن هذه النسخ تفقد أهم صفة من صفات الإنسانية، وهي الشعور والوعي بالذات.[57] ويرى آخر أنه بالإمكان استنساخ خلايا جينية من إنسان بالغ أو طفل مريض لإنشاء نسخ بشرية ذات أدمغة ميتة، والاستفادة منها مصادر للأعضاء.[58]

إن النظرة النفعية لصالح إنسان على حساب إنسان آخر هي التي أوحت لهم بهذه الفكرة، إذ بأي حق يمكن أن يُعتدى على إنسان وتعطل حواسه تحقيقاً لمصلحة إنسان آخر؟ ألا ينافي ذلك المساواة بين الناس جميعاً في حق الحياة؟ ألا يعتبر إهداراً لحق الإنسان في سلامة جسده، وإهداراً لآدميته حين يتحول إنسان إلى معرض لقطع الغيار تؤخذ منه أنسجته وأعضاؤه متى احتاجها غيره؟

إن كل نفس وكل روح كيان قائم بذاته، والإنسان ليس مجموعة أعضاء وأنسجة فقط، بل هو مادة وروح، وإزهاق هذه الروح لا يجوز شرعاً، بل يجب تكريمها حتى بعد وفاتها، فالواجب المحافظة على سلامة الكيان الإنساني الذي هو بناء الله، ولا يجوز التعرض بسوء لهذا الكيان ما لم يهدر الشارع عصمته لأمر من

---

57 ذهب إلى هذا الرأي الدكتور هاريس J. Harris في كتابه قيمة الحياة (The Value of Life)، المنشور في لندن عام 193م. انظر ناهدة البقصمي، مرجع سابق، ص219.

58 صاحب هذا الرأي هو الدكتور سايمون فيشل، وهو عالم الأجنة، والمشرف في عيادة إ خصاب في جامعة توتنجهام البريطانية. انظر مجلة قضايا دولية، بتاريخ: 17 مارس 1997، ص28.

الأمور الموجبة لذلك. وعموميات الشريعة تدل على تشريف الله للإنسان، ووجوب صيانته من كل ما يمس كرامته وحياته وسلامته، دون نظر إلى كبير أو صغير، لأن حقائق الأشياء لا تتغير بصغرها وكبرها، وإنما تتمايز باختلاف جوهرها، وجوهر الحياة الآدمية أودعه الله في هذه النسخ جميعها.

ثم إن عملية الاستنساخ آنذاك سوف تؤدي إلى تجارة، وهي رواج سوق بيع الأعضاء البشرية مما يعتبر إهانة بالغة، وعملاً غير أخلاقي بحق هذا الإنسان المكرم، وتعمل كذلك على انتشار الجريمة في المستقبل.

وكذلك يحرم إجراء التجارب الطبية على نطف الإنسان وأنسجته للتوصل لاستخدام نسخ مصابة بأمراض وراثية بغرض دراسة تلك الأمراض، وذلك لأن النسخ الأخرى لها الحقوق نفسها التي للنسخة الأصلية، فكما لا يجوز إجراء التجارب الطبية على النسخة الأصلية، لا يجوز ذلك أيضاً بالنسبة للنسخ المصابة، ولا يجوز كذلك تعمد استنساخ نسخ مصابة بغرض دراسة الأمراض التي أصابتها، مهما كانت الأهداف والغايات من وراء ذلك إنسانية في مظهرها، لأن ذلك يعدّ عملاً غير إنساني حتى لو حقق بعض المصالح المشروعة لتحسين صحة الإنسان.

لذا ينبغي عدم فتح باب الاستنساخ لأنه قد لا تُفلح البشرية في سده، وذلك اعتماداً على قاعدة (سد الذرائع)؛ لأنه قد يؤدي إلى مفاسد كبيرة للناس، ويودي بالبشرية ويدمرها.

وهنا يثار السؤال الآتي:

هل يجوز الانتفاع من عملية الاستنساخ لعلاج الزوج العقيم الذي لا توجد عنده نطاف منوية أو هي موجودة، ولكن بأعداد قليلة لا تؤدي الغرض، وقد يئس من العلاج وليس أمامه إلا هذا الطريق؟

وجواباً عن ذلك، للمرء أن يقول: إن من حكمة الله عز وجل ومن سنته في خلقه: أن جعل بعضهم عقيماً، وعليه فأي محاولة للإنجاب لا تكون بالطريق الطبيعي، تُعَدُّ مضادة لسنة الله تعالى في خلقه، فيحرم ذلك لقول الله عزو جل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:49-50).

ويمكن أن يُرد على ذلك: بأن حمل الآية على هذا المعنى مسألة فيها نظر، لأن العقيم هو الذي لا ينجب، أما الشخص الذي يمكن أن ينجب ولو عن طريق الاستنساخ فمعنى ذلك أنه ليس بعقيم. فإذا أمكن للعلم مساعدته على الإنجاب، وتذليل تلك العقبة الكبرى التي يواجهها لخلل في نطفه، أو لأي سبب آخر، بأن تؤخذ منه خلية من خلاياه الجسدية لا الجنسية، حيث إن هذه الخلايا تحمل نفس الجينات ونفس الحقيبة الوراثية والصفات التي تحملها الخلايا الجنسية، والله تعالى هو الذي خلق الخلية الجسدية. كما أنه خلق الخلية الجنسية، فالذي حدث في الاستنساخ هو نقل الصفات الوراثية من الزوج –وحده وليس من غيره– إلى الذرية عن طريق خلاياه الجسدية، فإذا أمكن معالجة العقم بهذه الطريقة، وحيث لا يشترك طرف ثالث في عملية الإخصاب والحمل، فما المانع من ذلك إذا تعذر الإخصاب طبيعياً؟

فالله تعالى هو الذي أودع هذه القوة الفاعلة الكامنة في الخلايا الجسدية، وكل الذي فعله العلماء هو تحفيز هذه الخلايا مرة أخرى،[59] لتعود للكروموسومات الجنسية في الخلايا الجسدية فاعليتها، فلولا أن الله تعالى وضع هذه القابلية في الخلايا الجسدية ما استطاع العلماء إلى ذلك سبيلاً.

وللمرء أن يتساءل: لماذا يمنع ذلك إذاً؟ خاصةً ونحن في مواجهة حالة الضرورة لأجل الإنجاب، باعتبار أن المحافظة على النسل هي إحدى الكليات الضرورية الشرعية الخمسة، والضرورات تبيح المحظورات.[60]

---

59 ومن عجيب صنع الله أن هذه الكروموسومات الموجودة ضمن ملايين الملايين من الخلايا الجسدية المختلفة في أشكالها ووظائفها متماثلة تماماً في العدد والتركيب، فلماذا إذا تتخصص هذه الخلايا، و تختلف في أشكالها ووظائفها بينما السر فيها واحد.
إن هذه الجينات لديها من الحكمة المعرفة التي ألهمها الله إياها بأن لا تعمل إلا في المكان المناسب والوقت المناسب، وكل واحدة منها يعمل بمقدار قد قدره الله لها: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: 8).
إن جزءاً يسيراً من هذه الجينات يعمل في كلة خلية معينة، ففي خلية الجهاز العصبي مثلاً هناك عدد دمحدود من الجينات يعمل، بينما الجينات الأخرى المسؤولة عن لون الجلد، أو الأنزيمات الهاضمة، أو إفراز الأنسولين لا تعمل، وهكذا في خلية الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجهاز الدوري والبولي والتناسلي.. إلخ.
فلا يعمل من هذه الجينات التي تبلغ المائة ألف أو تزيد في كل خلية سوى بضعة آ لاف، بينما تبقى الجينات الأخرى ساكنة ساكتة قد أطبق عليها الصمت. انظر د. محمد علي البار: الجنين المشوه والأمراض الوراثية، دمشق: دار القلم، 1991، ص: 172.
والجديد في عملية الاستنساخ هذه أن الخلية المزروعة في البويضة بعد نزع النواة منها هي خلايا متخصصة ومبرمجة على إنتاج خلايا عضو معين، ولكن الذي حدث ان العالم الأسكتلندي استطاع في تجربة النعجة (دوللي أن ينشط الشفرات الوراثية الساكنة في الخلايا الجسدية البالغة مرة أخرى لتعطي كل الأعضاء وليس عضواً معيناً، أي تصبح الخلية البالغة كل شفراتها الوراثية نشيطة، بعد ذلك أخذ هذه الخلايا وأعاد برمجتها، وأدخلها في بويضة منزوعة النواة. انظر مجلة المجتمع، بتاريخ: 1997/4/1، ص23، مقابلة مع الدكتور أسامة رسلان، أستاذ الميكرولوجيا.

وإذا سمح الشرع بذلك مراعاة للمصلحة الراجحة،[61] فإن الحظر سوف يتوقف، وينقلب آنذاك العمل غير المشروع إلى عمل لا يُسْأَل من قام به، لانتفاء الإثم عند الضرورة. إن الذي يرفع الحظر عن المحرم عند الضرورة هو الموازنة بين المصالح والمفاسد، فإذا أدى التمسك بالتحريم إلى الهلاك أو الضرر الشديد، فإن الحظر هنا يرتفع وإلا أدى الأمر إلى التكليف بما لا يطاق، أو إرغام المكلف على التصرف خارج نطاق الشريعة. وكل ذلك غير وارد شرعاً، فالضرورة تعد سبباً عاماً للرخصة، ومن هنا يقول الجصاص: "الضرورة بمثابة العلة، فمتى وجدت وجدت الرخصة".[62] والضرورة كما أراها هي: بلوغ الإنسان حدّاً يخشى منه الهلاك أو الضرر الشديد إذا لم يرتكب الممنوع شرعاً.[63]

ولكن أليس الحرمان من عاطفة الأبوة يوقع الإنسان في حرج وضيق، ويلحق به ضرراً وألماً؟ والألم النفسي أحياناً قد يكون أبلغ من الضرر المادي، وأشد إيلاماً منه، والمشقة والحرج مدفوعان في الدين.

وربما يرى بعضهم أنه يصعب أن نجد لمبدأ الضرورة متسعاً في هذه الحالة، بل هي أقرب إلى تحقيق المصالح الحاجية منها إلى الضرورية، لأن ذلك يستلزمه تحسين صحته النفسية، ومع ذلك فإن حالة الضيق والمشقة والحرج التي يحدثها العقم إنما هي أمور نسبية لا يحكمها ضابط أو معيار واحد، وتختلف باختلاف الإنسان وبيئته وعمره، ومدى صبره وتحمله، فقد يشكل ضيقاً وحرجاً لشخص، ولا يحدث مثل ذلك الأثر

---

60 انظر ابن رجب: القواعد، بيروت: دار الجيل، ج6، ص59؛ القرافي: ا لفروق، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ج4، ص9، وابن عابدين: حاشية ابن عابدين، القاهرة: طبعة مصطفى الحلبي، ج1، ص193.

61 وهناك من الباحثين من يرى جواز ذلك ولكن بالشروط الخمسة وهي:

1- أن تكون البويضة من الزوجة، فلا يجوز استعارة بويضة من أنثى غيرها أياً كانت.

2- أن تكون الخلية مأخوذة من الزوج، فلا يجوز التلقيح بخلية من غيره، ولو من الزوجة نفسها، وحتى لو رضي الزوج بذلك.

3- أن يكون التلقيح حال بقاء الزوجة في عصمة زوجها، وقيام الزوجية بينهما، فلا يجوز أن يكون بعد الفرقة بينهما.

4- أن يكون التلقيح والحفن في رحم الزوجة حال حياة الزوج صاحب الخلية، فلا يجوز ذلك بعد موته، ولو بلحظة.

5- أن يكون الاستنساخ علاجاً لا يمكن للزوجين الإنجاب بغيره، فلا يسمح به بين زوجين طبيعيين، لمجرد الحصول على نسخة منهما أو من أحدهما.

انظر رأي الأستاذ ناصر بن زيد الداود، القاضي برئاسة المحاكم بالسعودية، جريدة المسلمون، العدد 644، بتاريخ: 6 يونيه 97، ص8، مقال بعنوان: "الاستنساخ بالشروط الخمسة".

62 الجصاص: أحكام القرآن، ج1، ص126.

63 السيوطي: الأشباه والنظائر، ص61، تعريف الضرورة التي عرفتها هو نفس تعريف السيوطي مع تعديل بسيط.

لشخص آخر، فهل نفرد لكل حالة حكماً حسب الضرر والألم النفسي الذي يحدثه العقم في نفس صاحبه. وقد يكون هناك شخص ليس لديه هذا الشعور بالحرج والضيق لكونه مثلاً من أهل التسليم والرضا والصبر على البلاء، لذلك فإن علاج العقم بالنسبة إليه لا يحقق مصلحة ضرورية أو حاجية، فلا حاجة إذن به إليه، وإذا لازمه هذا الشعور بالضيق والحرج منه، فإن العلاج في هذه الحالة يحقق مصلحة حاجية له فيكون العلاج بهذه الوسيلة مأذوناً به له.

ويبقى أن نقول: إن تحقيق المصلحة الخاصة بالزوج العقيم بالانتفاع من عملية الاستنساخ –على رأي من يرى الجواز– مشروط بعدم الإضرار بمصلحة الأمة، وعدم فتح باب المفسدة عليها، فإن كان فيها مضرة ومفسدة وخراب للمجتمع في الحال أو المآل، فإنه يحرم آنذاك لضرره العام، وذلك استناداً إلى القاعدة الشرعية في سدِّ الذرائع،[64] ولا عبرة لما في ذلك من فوائد خاصة للزوج العقيم؛ لأن هذه الفوائد والمصالح آنذاك تكون مغلوبة بالمفاسد. يقول العز بن عبد السلام: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك، وإن تعذر الدرء والتحصيل، فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة".[65]

وهنا يثور إشكال آخر في هذه المسألة: وهو أن الوليد في حالة الاستنساخ بين الزوجين لن يحمل صفات الوالدين، بل يحمل صفات الأب فقط، والوليد في الإسلام، وفي كل الأديان، بل وعبر تاريخ الإنسان وفي ثقافاته كلها، وما جرت عليه الفطرة، هو الذي يحمل صفات الوالدين معاً، وصفات الأجداد من الأم والأب؛ ومعنى ذلك أن الوليد سوف يكون مقطوع الصلة وراثياً بالأم، وأجداد الأم، ووظيفة الأم هنا سوف تقتصر فقط على الحمل والوضع والرضاعة، دون أن يكون لها دخل في صفات هذا الوليد وملامحه وخصائصه. وآنذاك تكون أشبه برحم الزوجة الثانية حين تحمل لضرتها، فتكون هي مثلها مقطوعة الصلة من لناحية الوراثية بهذا الوليد، وإن كان البويضة منها، لكنه بويضة مفرغة من النواة.

---

64 ومعنى سد الذرائع هو: لو أن هناك مباحاً ولكنه إذا فتح الباب له سيؤدي إلى أمور منكرة للناس، فيمنع هذا الأمر المباح سداً للذريعة إلى الفساد، والقاعدة هذه مبنية على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: 108).

65 انظر عز الدين بن عبدالسلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ج1، ص98 ويرى الدكتور يوسف القرضاوي عدم جواز الاستنساخ للزوج العقيم لأنه مخالف لسنن الحياة: مقابلة شخصية مع فضيلته في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا في 1997/4/26م.

فهل ستكون هذه الأم صاحبة البويضة المنزوعة الجينات أُمّاً حقيقية، لأن الأم الحقيقية في الإسلام هي صاحبة البويضة والجينات الوراثية، وأن تكون هي نفسها صاحبة الحمل والوضع، أم هي أم لها حكم الأم بالرضاعة شأنها شأن الأم صاحبة الرحم (الزوجة الثانية)؟

وللمرء أن يتساءل: ما هوية هذا الوليد، هل هو ابنه؟ أم يمكن أن يعتبر هذا الوليد هو الزوج نفسه يولد من جديد، يولد مرة أخرى؟ ولكن هذه المرة ليس من رحم أمه، بل يولد من رحم زوجته، لأن الوليد هو الأب نفسه بيولوجياً لكنه يفترق عنه زمنياً. تشابهُ مطلق ربما بين الأب والابن والحفيد؟ ألا يمكن أن يعد هذا من التغيير لخلق الله المنهي عنه.

وأخيراً ليس هدف من إثارة تلك الإشكالات، ومحاولة الجواب عنها، ثم إيراد الردود والاعتراضات على بعض تلك الأجوبة، إلا محاولة للانفتاح على هذا الموضوع وما يتعلق به من مشكلات بمزيد من التعمق والبحث من مختلف أهل الخبرة والاختصاص، سعياً لحفز مزيد من جهود العلماء والمفكرين لهذه المسألة الخطيرة.

لذلك ينبغي أن يبحث الأمر بعيداً عن التهويل والمبالغة ودون تشنج وتوتر فكري، بل ينبغي اتباع روح الاتزان والانفتاح على مختلف الآراء تحرياً للصواب، وأن لا يتأثر الباحث بتلك الغضبة العارمة في العالم ضد هذه المسألة، وأخشى أن تضيع بعض هذه المصالح في فيضان الغضب هذا.